الفصل السابع

- الزخـــارف فى العـــصـــر الإســـلامى
- الزخـارف الهندسـيـة فى الفنون الإسـلامـيـة
- الزخـارف النبـاتيـة فى العـصـر الإسـلامى
- رسم الحـيـوان فى الزخـرفـة الإسـلامـيـة
- الزخـــارف فى العـــصـــر الفـــاطمى
- زخارف المنسوجات فى العصر الأيوبى والمملوكى
- زخـارف المنسـوجـات فى العـصـر العـثـمـانى

الزخارف فى العصرالإسلامى

الزخارف الهندسية فى الفنون الإسلامية

عرفت الفنون التى سبقت الإسلام أنواعاً كثيرة من الرسوم الهندسية . ولكن هذه الرسوم لم يكن لها فى تلك الفنون الشأن العظيم . فقد أصبحت الرسوم الهندسية عنصراً أساسياً من عناصر الزخرفة .

وقد وجدت الرسوم الهندسية كالمثلثات والمربعات والمعينات والأشكال المخمسة والسداسية والدوائر والجدائل والخطوط المنكسرة والخطوط المتشابكة .

وقد امتاز العصر الإسلامى برسوم هندسية امتازت بها الفنون الإسلامية وهى التراكيب الهندسية ذات الأشكال النجمية المتعددة الأضلاع . وهى التى ذاعت فى مصر واستخدمت فى زخارف التحف الخشبية والنحاسية ، وفى الصفحات الأولى المذهبة فى المصاحف والكتب ، وفى زخارف السقوف وغير ذلك. وقد أتقن المسلمون هذا النوع وقد عنى العالم الفرنسى (برجوان Bour-goin) بدراسة هذه الزخارف الهندسية المعقدة وتحليلها إلى أبسط أشكالها ، ويتجلى من دراسته أن براعة المسلمين فى الزخارف الهندسية لم يكن يقوم على الموهبة الطبيعية فقط ، بل كانت تقوم على علم وافر بالهندسة العلمية .

وقد أعجب الغربيون بهذه الرسوم الهندسية وقلدها بعضهم حتى ليروى عن المصور الإيطالى (ليوناردو دافنشى) أنه كان يقضى ساعات طويلة يرسم فيها الزخارف الهندسية الإسلامية .

وكانت الزخارف الهندسية أكثر ذيوعاً فى الطرز التى ازدهرت فى مصر والشام .وقد طبعت الفنون الإسلامية بطابع هذه الرسوم الهندسية حتى أن (برجوانBourgoin) أشار فى معرض دراستها وتحليلها إلى ثلاثة فنون عظيمة: هى الفن الإغريقى ، والفن اليابانى ، والفن العربى الإسلامى وشبهها بالترتيب بالفصيلة الحيوانية والنباتية والمعدنية . إذ أن شاهد فى الفن

الإغريقى عناية بالنسب وبالأشكال التجسيمية وبدقائق الجسم الإنسانى والحيوانى ، بينما عرف فى الفن اليابانى دقة فى تمثيل المملكة النباتية ورسم الأوراق والفروع والزهور . أما فى الفن الإسلامى فقد اتسم بالأشكال الهندسية المتعددة الأضلاع بالأشكال البلورية التى توجد عليها المعادن .

الزخارف النباتية فى العصر الإسلامى :

تأثر العنصر النباتى فى الزخارف الإسلامية بانصراف المسلمين عن استيحاء الطبيعة وتقليدها تقليداً صادقاً ، فكانوا يستخدمون الجذع والورقة لتكوين زخارف تمتاز فيها من تكرار وتقابل وتناظر ، وتبدو عليها مسحة هندسية جامدة تدل على سيادة مبدأ التجريد والرمز فى الفنون الإسلامية .

وأكثر الزخارف النباتية ذيوعاً فى الفنون الإسلامية (الأرابيسك) ، وقد عمت هذه التسمية حتى كادت تطلق على كل الزخارف النباتية الإسلامية . ولكن الحقيقة أن (الأرابيسك) هى الزخارف المكونة من فروع نباتية وجذوع منثنية ومتشابكة ومتتابعة وفيها رسوم محورة عن الطبيعة ترمز إلى الوريقات والزهور .

وقد أتقن المسلمون زخارف نباتية أخرى غير (الأرابيسك) تتكون أيضاً من جذوع نباتية وازهار وأوراق تختلف فى دقة تقليد الطبيعة بحسب العصور والأقاليم .

ويبدو على بعض الزخارف النباتية الإسلامية طابع هندسى ، لأن قوامها خطوط منحنية أو ملتفة يتصل بعضها ببعض ، وقد يكون بينها ما يخرج منه فص أو فصان أو أكثر ، وقد يراعى فى هذه الخطوط مبدأ التقابل والتماثل .

ومما لاشك فيه أن الرسوم النباتية كانت منذ البداية عنصراً مهماً من عناصر الزخرفة الإسلامية . ولكنها كانت ترسم بصورة محورة عن الطبيعة .

رسوم الحيوان فى الزخرفة الإسلامية :

إستعمل المسلمون فى زخارفهم رسوم الأسد والفهد والفيل والغزال

والأرنب والطيور الصغيرة بأنواعها . وربما رسموها مع فرع نباتى يتدلى من منقارها أو حول رقبتها . وقد لاحظ بعض المتخصصون فى الفنون الإسلامية أن معظم الحيوانات والطيور التى رسمها الفنانون المسلمون كانت من الحيوانات التى تُصاد أو تستعمل فى الصيد .

وقد أخذ المسلمون عن فنون الشرق الأقصى رسوم حيوانات خرافية ومركبة. وطبيعى أنها لقيت منهم ترحيباً كبيراً لأنها كانت تتفق فى تركيبها مع البعد عن الحقيقة والطبيعة ومع التجريد الذى نعرفه فى الفنون الإسلامية ، على أن المسلمين ، حين أخذوا تلك الحيوانات الخرافية عن الصين ، لم يحتفظوا بمعانيها الرمزية بل أصبحت عندهم رسوماً زخرفية فحسب . فالتنين مثلاً كان من شارات الملك فى الصين ، ولكن فى الفن الإسلامى لا يرمز إلى شئ بل هو زخرفى فحسب . وكذلك كانت العنقاء فى الشرق الأقصى رمزاً للإمبراطورة ، ولكنها فى الإسلام لا ترمز إلى شئ . ومن الحيوانات المركبة التى ذاعت فى الرسوم والزخارف الإسلامية رسم الفرس ذات الوجه الآدمى ، ولاسيما أنها يتوفر فيها الوصف الذى جاء فى الكتب الإسلامية للبراق ، فعنى المسلمون برسمها فى توضيح قصة المعراج . ورسم الفنانون فى الإسلام الطيور الصغيرة ذات الوجه الآدمى . ورسموا الأفاعى والحيات والحيوانات والطيور المجنحة.

ويمكننا أن نرجع معظم رسوم الحيوان فى الزخارف الإسلامية إلى الفن الساسانى. وكانت رسوم الحيوان فى الزخارف الإسلامية الأولى تذكر برسوم العصر الساسانى فى القوة وعنف المظهر ولاسيما فى رسم المفاصل . وكانت تشبهها كذلك فى إتباع التماثل والتوازن والتقابل . وفى رسم الحيوانات والطيور متواجهة أو متدابرة أو بينها شجرة الحياة ، وفى رسمها متتابعة فى أشرطة من الزخارف .

وهكذا نرى أن رسوم الحيوان فى الفنون الإسلامية لم تكن مقصودة لذاتها إلا فى النادر وإنما اتخذت فى معظم الأحيان موضوعاً زخرفياً وكانت توضع فى دوائر أو أشرطة أو فى مناطق هندسية مختلفة الأشكال ، منفردة أو متواجهة أو

متدابرة . ولاريب فى أن من أهم الدوافع إلى رسم الحيوان فى الفنون الإسلامية كراهية الفراغ والرغبة فى تغطية السطوح والمساحات بالزخارف .

الزخارف فى العصر الفاطمى :

أهم أنواع المنسوجات الفاطمية من حيث الزخرفة عبارة عن أربعة أنواع تمثل العصور الرئيسية فى حكم هذه الدولة .

النوع الأول : يمثل عصر المعز لدين الله والعزيز بالله والحاكم بأمر الله ، ويرجع إلى نهاية القرن الرابع الهجرى وبداية القرن الخامس الهجرى (٩٦٩-١٠٢٠م) . قوام الزخارف أشرطة من الكتابة توازيها أشرطة أخرى بها جامات سداسية أو بيضاوية الشكل أو معينات قد تتداخل بعضها فى بعض وفيها رسم حيوان أو طائر أو رسم حيوانين أو طائرين متقابلين أو متدابرين أو رسم وردة . ونلاحظ أن شريط الرسوم الزخرفية محصور بين سطرين متعاكسين من الكتابة الكوفية .

النوع الثانى : أما النوع الثانى فى زخرفة المنسوجات الفاطمية فيمثل عصر الظاهر والمستنصر أى من بداية القرن الخامس إلى قرب نهايته (١٠٢٠-١٠٩٤م) وقد زاد فيه الإقبال على الأشرطة الزخرفية واتسعت وزادت وحداتها . وكان قوامها جامات ومناطق صغيرة فيها رسوم طيور وحيوانات محورة عن الطبيعة وتحصرها سطور من الكتابة الكوفية المتعاكسة ، ويلاحظ أن الفراغ بين قوائم الحروف يزين بفروع نباتية دقيقة . ومن أمثلة هذا النوع قطعة من نسيج دقيق وعليها ثلاثة أشرطة ، الأول والثالث منهما يضمان زخرفة من جامات على شكل معين ، وفى كل جامة رسم طائرين متقابلين بألوان مختلفة أحمر وأزرق وأصفر وأسود . والشريط الأوسط فيه مثل هذه الجامات محصورة بين سطرين من الكتابة الكوفية باسم الخليفة المستنصر ووزيره بدر الجمالى . ويلاحظ أن الكتابة فى بعض القطع من هذا النوع تطورت لتصبح عنصراً زخرفياً فحسب ، بل أنها أصبحت فى بعض الأحيان مقاطع أو كلمات تتكرر . وكانت بعض القطع تخلو من الكتابة فيتجلى مافيها من إبداع فى الزخارف النباتية ورسوم الطيور والحيوانات الصغيرة .

النوع الثالث : يمثل عصر الخليفة المستعلى بالله والخليفة الآمر بأحكام الله فى الربع الأخير من القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس بعد الهجرة (١٠٩٤ - ١١٣٠م) وتتطور فيه الزخرفة فتظهر إلى جانب العناصر القديمة عناصر أخرى جديدة مثل الأشرطة والجدائل التى تتموج وتتداخل فتحصر بينها جامات تضم رسوم طيور أو حيوانات أو أوانى بها فاكهة . وقد تظهر سطوراً من الكتابة الكوفية بأسم الخليفة ووزيره ، كما يبدو فى كتاباته ظهور خط النسخ .

ومن أجمل الأمثلة المعروفة من هذا النوع ملاءة محفوظة فى كنيسة سانت آن بمدينة (آبت Apt) جنوبى فرنسا . وهى منسوجة من الكتان الرقيق جداً ، وطولها ٣١٠ وعرضها ١٥٠ سنتيمتراً وبها ثلاثة أشرطة متوازية تمتد فى طولها . والشريطان الخارجيان تزينهما جامات وتحيط بهما كتابة بحروف دقيقة زرقاء ، والشريط الأوسط عليه زخارف من دوائر ذهبية متداخل بعضها فى بعض وتقطعها ثلاث جامات مستديرة محاطة بكتابة من حروف كوفية كبيرة ومنسوجة باللون الأحمر .

وقد ثبت من الكتابات فى الجامات الثلاث أن هذه الملاءة نسجت فى طراز الخاصة بدمياط وأن عليها إسم الخليفة المستعلى الذى حكم من سنة ٤٨٧ إلى سنة ٤٩٥هـ (١٠٩٤ - ١١٠١م) وإسم وزيره الأفضل شاهنشاه ، وأنها نسجت سنة ٤٨٩هـ (١٠٩٦-١٠٩٧م) . وزخارف الشريط الأوسط من الملاءة قوامها دوائر متداخلة ، وأرضيتها مذهبة وفيها خطوط سوداء قصيرة تقسمها إلى مناطق متجاورة . والفراغ الناشئ بين الدوائر عند اتصالها مزين برسوم وريقات شجر ذات فصين أو ثلاثة . واثنتان من الجامات الثلاث المستديرة فى هذا الشريط قطر الواحدة منها حوالى ١٤٠ملليمتراً وتتألفان من دائرتين متحدتى المركز ، فى الدائرة الخارجية شريط من الكتابة الكوفية الحمراء ، وفى الداخلية رسم حيوانين وهميين لكل منهما جسم أسد ووجه إمرأة . والجسم مذهب والبطن أبيض وبه مربعات صغيرة سوداء . والشريطان الآخران كل منهما

ثلاث مناطق ، الوسطى بها دوائر ، فى كل منها حيوان له أذنان طويلتان وعقد حول رقبته . وتصل هذه الدوائر بعضها ببعض الأشكال المتعددة الأضلاع تشبه النجوم السداسية الفصوص ، وفى كل منها رسم طائرين . وتحدد كلا من هذين الشريطين من أسفل ومن أعلى كتابة كوفية زرقاء .

النوع الرابع : زخرفة المنسوجات فى هذا النوع ترجع إلى نصف القرن الآخير من حكم الدولة الفاطمية فى القرن السادس الهجرى (١٢م) . وقوام الزخارف عبارة عن جدائل تتقاطع وتتشابك فتؤلف جامات بها رسوم حيوانية أو نباتية . أما الكتابة فكانت بخط النسخ. وفى هذا النوع أشرطة عريضة تكاد تغطى النسيج كله .

ولقد عظم إهتمام الخلفاء فى الدولة الفاطمية بصناعة النسيج وكانت وظيفة "صاحب الطراز" وهو المشرف على شئون النسج فى البلاد لا يتولاها إلا أحد كبار الموظفين المقربين من الخليفة . وزاد الإنتاج فى الأقمشة . وكانت هناك أنواع من المنسوجات الحريرية التى لا تصنع إلا للخليفة .

وقد كان أفراد الرعية يحصلون على أقمشة أخرى نفيسة جداً . وكانت الجلاليب والأقمشة والعمائم والأحزمة تصنع من أقمشة غالية تزينها أشرطة مشغولة بالحرير ، أخذ حجمها فى الزيادة حتى صارت فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) تغطى هذه الأشرطة المطرزة معظم الأرضية .

وقد زار خسرو الرحالة الفارسى مصر فى منتصف القرن الخامس الهجرى (١٠٤٠م) وأعجب بما كان ينسج فى مدينة تنيس من قصب ملون تصنع منه ثياب النساء . وكذلك العمائم والقلنسوات . وقال "إن مثل هذا القصب الجميل لا يصنع فى أى مكان آخر ، وأنه سمع أن أمير مقاطعة فارس فى بلاد إيران أرسل عشرين ألف دينار إلى تنيس ليشترى بها ثوباً من النسيج الملكى . وكانت مصانع تنيس تنسج نوعاً من القماش يسمى البوقلمون يتغير لونه بأختلاف ساعات النهار ، ويصدر إلى بلاد المشرق والمغرب .

المنسوجات فى العصر الأيوبى والمملوكى :

ازدهرت صناعة النسيج والعناية بنسج الحرير وتطريزه وتزيينه بالزخارف المطبوعة.

ومن المنسوجات المصرية المصنوعة من الكتان فى القرن السابع الهجرى (١٣م) وامتازت زخرفتها باستعمال الخط النسخ . إلى جانب الإقبال على الزخارف النباتية والأشكال الهندسية من مثلثات ودوائر ومعينات . واستخدمت الألوان الأسود والأزرق فى بعض القطع الحريرية المطرزة .

ومن أجمل المنسوجات الأيوبية والمملوكية فى مصر والشام منسوج من الحرير . وزخارفها متنوعة وبعضها يشبه الزخارف التى توجد على التحف الخزفية والمعدنية فى هذا العصر .

وتوجد قطعة من الحرير الأصفر قوام الزخرفة أشرطة متعرجة تضم بينها جامات أو مناطق بيضاوية الشكل فيها رسوم طيور فى القرن السابع الهجرى (١٣م) .

ومن المنسوجات المملوكية قطعة من الحرير محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة. وزخرفتها عبارة عن شريطين من الكتابة النسخية المملوكية تتكرر فيهما عبارة "عز لمولانا السلطان الملك الناصر" ولعله السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون. وبين هذين الشريطين شريط ثالث فيه رسوم شجيرات مورقة يفصل كل شجيرة منها عن الأخرى رسم فهد يطارد غزالاً .

ومن المنسوجات الوثيقة الصلة بعصر المماليك قطع من الحرير عليها زخارف صينية الطراز وعلى بعضها إسم السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون . وعلى بعضها حروف بالخط الكوفى المربع . والحق أن نسج الحرير فى عصر المماليك تأثر إلى حد كبير بمنتجات الشرق الأقصى . وقد وجدت بعض هذه القطع فى مصر .

أما المنسوجات ذات الزخارف المطبوعة فقد ازدهرت صناعتها فى عصر المماليك. وأجمل ما نعرفه منها يرجع إلى القرنين السابع والثامن بعد الهجرة

(١٣-١٤م) . وقوام زخارفها معينات تضم وريدات وفروع نباتية باللون الأزرق أو الأحمر أو البنى.

ويوجد نوع مهم من الزخرفة وهو "الرنك" وجمعها "رنوك" عبارة عن قطعة من القماش المطرز والمضافة إلى السراويل فى منتصف الساق من الخارج وتحمل زخارف مختلفة سواء أكانت زخرفة لشجرة أو نخلة أو وردة أو غير ذلك . وكانت هذه عبارة عن شارات يمكن التعرف من خلالها على أسماء المماليك لأنه كان بينهم شبه كبير . وكان الملك الصالح يتعرف عليهم من خلال هذه الشارات (الرنوك) .

المنسوجات فى الطراز العثمانى :

ازدهرت صناعة النسيج فى الإمبراطورية العثمانية . وكان أهم منتجاتها الديباج والمخمل (القطيفة) ومعظم هذه المنتجات النفيسة كان فيما بين القرنين العاشر والثانى عشر بعد الهجرة (١٦-١٨م) . وكانت أهم مراكز النسج فى آسيا الصغرى بروسة واسكدار .

وقد امتازت المنسوجات التركية بالموضوعات الزخرفية النباتية . ولم يكن فى رسومها التنوع الذى عرف فى رسوم المنسوجات الإيرانية ، بل أقبل النساجون على رسوم الزهور كالقرنفل والسوسن والورد وهذه الزخارف كانت موجودة على الخزف والقاشانى قبل وجودها على الأقمشة .

وكانت المنسوجات ذات الموضوعات الزخرفية الكبيرة المساحة تستعمل فى الستائر والأغطية ، بينما كانت سائر الأقمشة تستعمل فى الملابس النفيسة فى شتى أنحاء الإمبراطورية العثمانية .

أما الألوان التى كانت تغلب على المنسوجات التركية ، الأحمر والأخضر والأرجوانى . وكان يدخل فى نسجها أحياناً خيوط الفضة المذهبة .

لمزيد من التفاصيل عن الزخارف فى العصر العثمانى يمكن الرجوع إلى (ثريا نصر: رسالة الماچستير ١٩٧٢) ، (ثريا نصر : النسيج المطرز فى العصر العثماني ٢٠٠٠)